الخاتمة

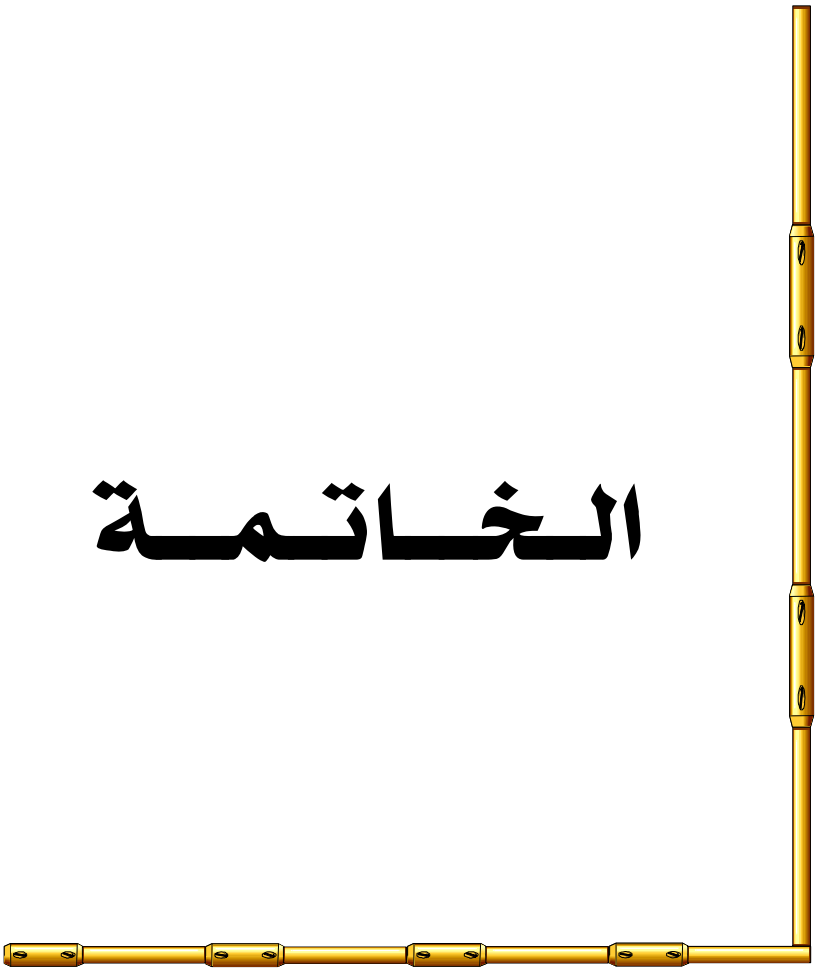

بعد هذا البحث الذى قدمناه، والذى يدور موضوعه حول "فلسفة الوجود" عند كيركجور" لابدّ أنْ نقفَ وقفةً قصيرةً، نتأملُ فيها فكَر كيركجور مرة أخرى، ونتبين مكانةَ فلسفِته، وتأثيرَها فى المسارِ الفلسفى العام.

يعد "سرن كيركجور"، مفكرًا وجوديًا، ورجلَ دينٍ فى الوقتِ ذاتِه، ولقد اعتبره بعضُ المؤرخين والمفكرين، أول وأعظم فيلسوف وجودى، بالمعنى الدقيق الذى تدلُ عليه كلمة "وجودية"، يُعزى إليه الفضلُ فى أنه أول مَنْ أشار إلى كثيرٍ من مصطلحاتِها.

الواقع أنه، حينما توفى كيركجور عام "1855"، لم يكن ثمةَ، أدنى احتمال فى أنْ تبقى أعماله، أو أنْ تحتلَ مكانًا مرموقًا، وسْط التراثِ الوجودى، ذلك لأنها كُتِبتْ باللغة الدانيماركية، التى لا تعرَف إلا نادرًا خارج "الدانمارك". كما أنه هو نفسه، لم يكن مشهورًا وقتذاك خارج بلاده، لكن فى داخلها كان معروفًا، ليس ذلك بسبب كتاباته أو أعماله الفلسفية ذاتِها، أو بسببِ موقفهِ الوجودى الذى يرتكُز على الذاتيةِ العينيةِ لهذا الفردِ أو ذاك، وإنما بسببِ هجومه العنيف على الكنيسةِ الرسميةِ، التى أحالت – فى رأيه – الإيمانَ إلى موضوعٍ يمكُن فهمُه واستيعابُه عقليًا، بدلاً من أنْ يكون نوعًا من المخاطرةِ من قِبلِ ذاتٍ انتقلتْ عبر مراحل الوجودِ المختلفة، مبتدئةً بالمرحلة الجمالية، ومارةً بالمرحلةِ الأخلاقيةِ، ثم إلى المرحلة الدينية.

على الرغم من أنَ كيركجور، لم يُكتشفْ، ولم تترجْم مؤلفاتُه إلى اللغات الأجنبية، إلا بعد مرورِ قرنٍ من الزمان، إلا أنَّ نزعته الفردية الذاتية، قد أثرت على الكثيرِ من المفكرين المعاصرين، فأصبحت "التجربة الحية" هى نقطةُ البدايةِ فى كلِ فلسفةٍ، وصارت علاقةُ الحرية بالمطلق. هى الموضوعُ الأول فى كلِ تأملٍ ميتافيزيقى". ويعد هذا دليلاً على نجاح كيركجور، فى التمهيد لطريقٍ جديدٍ فى الفلسفة، يهتم "بالإنسان الفرد"، ويتخذ أسلوبًا جديدًا فى التفلسف. يبدأ من "الإنسان" لا من الطبيعة، ويهتم "بالذات"، لا الموضوع، ويدرس مكونات هذه الذات، ومتى تكون أصيلةً. ومتى تكون زائفةً. كما يهتم بمشكلاتها، وما تعانيه من هَمٍ

وقَلق، ويأس، وأمراض روحية، وأنماط مختلفة من الوجود المتاحة أمامها . . . الخ، وهذا كله جعل منه، رائدًا للوجودية.

إننا لا نزعم أنَّ فلسفةَ كيركجور، فلسفةٌ كاملةٌ، لا موضع فيها لأى نقص أو مأخذ ولكننا نقول، إنَّ الفلسفة العظيمة ليست هى تلك التى لا يمكن أنْ يؤخذَ عليها شىءٌ، بل هى تلك التى استطاعتْ أنْ تقولَ بالفعل شيئًا. ولقد استطاع كيركجور، أنْ يقولَ شيئًا، بل أشياء، ونحن نريد فى هذه الخاتمةِ أن نبينَ ماذا أفادت الفلسفةُ من كيركجور، ليس هذا فحسب، بل نريد أنْ نبينَ أيضًا، الجوانبَ الإيجابيةَ والسلبيةَ فى فلسفته.

لهذا الغرض، حاولنا فى هذا البحث، ألا تقدم أفكار كيركجور فى مذهب فلسفى، ومع ذلك فقد اقتضت مطالب العرض، تجريد فكر كيركجور من صورته المعاشة، حتى يمكننا أنْ نحلَ التناقضات التى بدتْ فى سياق أعماله المختلفة كلها، هذا على الرغم من أنَّ كيركجور كره، أن تصبح أعمالهُ موضوعًا لمذهبٍ فلسفىٍ، تتحد فيه كل التناقضات الأساسية فى فكره.

وعلى حد تعبيره : -

« بعد وفاتى، لنْ يجدَ أحْد بين أوراقى تفسيرًا لما كان يشغل حياتى، لنْ يجدَ الكلماتِ التى تفسرُ له كلَ شىءٍ، والتى جعلتْ ما يراه العالمُ تافهًا، هو حادثةٌ ذاتُ أهميةٍ خاصةٍ عندى، وما اعتبره أنا نفسى بلا مغزى، لو نزعتُ عنه بريق السر الذى يفسر كل شىء. وهذا هو عزائى الوحيد »

ومن هنا كان لابدَّ لنا، من اتخاذِ فكرِ كيركجور، موضوعًا لبحثٍ فلسفى يقوم على أسس مختلفة عن مقاصد كيركجور نفسه، ذلك للأهمية الكبرى التى نالها بعد وفاته، ولقوة تأثيرِه حتى أصبح أسلوبُه فى "التفلسف" منتشرًا ممتدًا، فى جميع الاتجاهات التى تهتم "بالفلسفة" .

إن فلسفة كيركجور قد علمتنا :-

1- أنَّ ثمةَ جوانبَ من الواقعِ، قد لا تنكشف من خلال النظرات العلميةِ، حيث أراد أنْ يبينَ لنا، أنَّ نطاقَ "الوجود"، هو غيرُ نطاقِ "الموضوع" وأنَّ الذاتَ الإنسانيةَ، لا يمكنُ أنْ تُفْهمَ باعتبارِها مجردَ شيء.

فالمفكرُ الذاتى يهدف، "إلى فهم التحديدِ المجردِ للوجودِ الإنسانى العام، بلغةِ الوجودِ العينى الجزئى".

2- على الرغم مما فى فلسفةِ كيركجور، من طابع دينى لاهوتى، فإننا نجدُ فيها بذورَ الوجوديةِ فى شتى صورِها، إذ نستطيعُ أنْ نلخصَ كلَ فلسفتِه، فنقول أنها تقريرٌ لما فى الحياةِ من تناقض، وتأكيدٌ لقيمةِ الذاتيةِ فى السبيل المؤدى إلى الحق، وإيمانٌ بأن "المطلق" أو "التعالى" نفسه، لا يمكن أنْ ينكشفَ إلا من خلال علاقتِه "المباطنة" بالذاتِ الفردية.

3- كما علمتنا فلسفةُ كيركجور، أنَّ الوجودَ "اختيارٌ"، ولا ينبغى هنا، أنْ نقتصرَ على القول بأنَّ الإنسانَ حرٌ، بل لابدَّ من أنْ نضيفَ إلى ذلك أنه يختارُ نفسَه بنفسِه، ولكن هذا الاختيارَ، محددٌ بمجموعةٍ من "المعطياتِ"، فأنا لا اختار ذاتى، إلا فى دائرةٍ معينةٍ، وإمكاناتى نفسُها، لا تتحدد إلا ابتداءً من تلك المعطيات.

وتحتل فكرةُ "الممكن"، مكانةً كبرى فى فلسفةِ كيركجور، ولكنْ يجبُ أنْ نلاحظَ أنَّ "الممكناتِ"، نفسَها لا وجودَ لها قبل اختيار الفردِ لذاتهِ، لأنها لا تظهر إلى الوجود إلا بفعلِ الاختيارِ ذاته.

وهنا نجد فى فلسفةِ كيركجور، معانى الحريةِ، والإمكانِ والقلق، والخطيئةِ، فضلاً عما فى فلسفته من طابع درامى، يجعلُ من الوجودِ الإنسانى مأساةً حيةً، لا تخلو من ألمٍ، وصراعٍ، وتناقضٍ، وتشاؤمٍ، وتجاربَ نفسية عنيفةٍ.

4- ربما يقول أحد، أنَّ فلسفة كيركجور، لا ترى من الوجود، سوى القلق، واليأس، والتشاؤم، والموت، وانعدام القيمة أو المعنى. وردنا على ذلك، هو، أنَّ كيركجور، يعلمنا، أنْ نرى الوجودَ كما هو، عاريًا من كل أوهام خلاَّبة، أو تهاويل براقة.

والقولُ بأنَّ الحياةَ لا معنى لها ولا قيمةَ، يعنى أنَّ الحياةَ ليست ذا أهميةٍ قبل أنْ يوجد فيها الإنسانُ، لأنه هو الذى يضفى عليها المعنى.

5- يربط كيركجور نجاحَ "الموجود البشرى" فى تحقيقِهِ لذاته الأصيلة، إيمانه "بالمفارقة"، وهو فى ذلك يعنى، أنَّ الإنسانَ، هو الموجودُ الوحيدُ : الذى يفلتُ من التعيناتِ المادية، والظروفِ التاريخيةِ، والتحديداتِ الميتافيزيقية. فالإنسانْ ينزع باستمرار نحو المستقبل، ويتنصلُ فى كثيرٍ من الأحيان من ماضيه، وينفصل فى كلِ حينٍ عن ذاته، ويضع وجودَه باستمرار، موضعَ التساؤل.

6- لقد علمتنا فلسفة كيركجور، أنَّ الوجودَ الإنسانىَ، لا يمكن أنْ يحيا فى نماذج مختلفة للوجود فى آن معا، بمعنى استحالة الجمع بين حقيقةِ الفردِ الروحيةِ، والنمطِ المألوف للحياةِ العادية. لذلك قسم كيركجور الوجودَ إلى ثلاث مراحل :

مرحلةْ جماليةْ، يحيا فيها الفردُ مستمتعًا باللحظةِ الحاضرةِ.

ومرحلةْ أخلاقيةْ، يحيا فيها الفرد فى الزمان، ملتزمًا بتحقيقِ واجبه الأخلاقى العام.

ومرحلةْ دينيةْ، يكون فيها الفردُ، على علاقةٍ بالأيدى، محققًا سعادته الأبدية.

7- يذكرنا كيركجور، باستمرار أنَّ لكتاباتِه هدفًا بنائيًا، أو غايةً تهذيبيةً، أو إرشاديةً بالدرجةِ الأولى، فهو يوجه كتبَه إلى الوجودِ الفردى، لكى يساعدَه على أنْ يصلَ إلى تفاهمٍ مع وجودهِ الخاص.

8- وقد نلاحظ فى كتابات كيركجور، بعدًا لاهوتيًا، يظهر من خلال تأكيده، على أنَّ الفردَ فى محاولةِ تحقيقه لذاته، يجبُ أنْ يكونَ ماثلاً أمام اللّه، وكذلك من خلال رؤيته عن "السعادة الأبدية" التى تتحقق عن طريق إيمان الفرد بمفارقةِ "التجسيد"، و"بغفران الخطايا"، ولكننا نرى أن هاتين السمتين، تبرز ما فى فكرِ كيركجور، من ارتباطٍ وتناغمٍ بين البعد الوجودى، والبعد الدينى.

ويمكن تحديدُ البعدِ الوجودِى، من خلال مفهومِ كيركجور عن "الذاتِ" التى يرى أنها يجبُ أنْ تكونَ ذاتًا مطلقةً ومستقلةً بذاتِها، وتتأسس بنيتُها، فى الحقيقةِ الأخلاقيةِ، فى كفاح الفردِ لبلوغ ذاتهِ الخاصة.

9- يشددكيركجور، على أنَّ الفردَ فى تحقيقة لذاته، ومن ثم فى تحقيقه للمطلب الأخلاقى، لابدَّ أن يكون على علاقةٍ باللّه، وفى هذا تأكيدْ بصفةٍ أساسيةٍ، على ظهور اللّه فى الزمان، أى "التجسيد". إنَّ بلوغَ الذاتِ للسعادة، وإلى العلاقةِ السليمةِ باللّه، هو أمرْ لابد أنْ يتأكدَ عن طريقِ الإرادةِ المستمرةِ، للذاتِ فى أنْ تكونَ ذاتها.

10- يصر كيركجور، على أنه، لا يجبُ النظرُ إلى استقلاليةِ الذات وتطورها، على أنه تحديًا للحقيقةِ الدينيةِ، وإنما يجبُ أن يعبر عن العنصر الدينى فى بنيتِها الحقيقية.

11- يعبر الإيمانُ الدينُى، عن استقلاليةِ الذاتِ، فى أعلى وأعظم تأكيد لعينيتها. ومن هذا يتضح مدى الاتساق بين البعدِ الوجودى، والبعدِ الدينى، فى فكرِ كيركجور، حيث حاول أنْ يوفقَ بين التأملِ الذاتى، والإيمان الدينى، فرأى أنَّ الذاتَ تتصلُ ذاتُها بذاتها عن طريقِ الإيمان، معنى هذا، أنَّ الإيمانَ يؤكد تطور الذات من خلال قراراتها الخاصة، أي أن للإيمان، فعل تتحقق بواسطته المتطلبات الأخلاقية، بحيث تتحقق ذات الفرد، تحققًا كاملاً، وتفهم فهمًا تامًا، وبالتالى فهو فعل تبلغ الذات عن طريقه سعادتها.

ولا شك أن كيركجور فى فلسفته، قد مزج أفكاره بدمه، فقدمها بإخلاص ونقاء، وهذا ما جعل تأثيره قويًا فى مجال الفكر الفلسفى، ولا سيما فى مطلع القرن العشرين، حيث أخذ الفكر الفلسفى يتأمل فى أعمال وحياة كيركجور. وهكذا نرى، أن الفلاسفة الوجوديين، قد بنوا فلسفتهم على هذا التأمل، فلا نجد عنصرًا واحدًا فى فلسفة كيركجور، لم يكتسب أهمية كبرى، فى هذا النوع من التفلسف. على

سبيل المثال، نرى مارتن "هيدجر" يتعمق فكرة كيركجور الأساسية، فكرة "المفارقة"، التى لا يمكن الحديث عنها، إلا بأسلوب غير مباشر، وهو يعبر فى كل أعماله عن هذه الفكرة بصورة مختلفة، فالمفارقة الكيركجورية، تعبر عن "الوجود الأصيل"، عند هيدجر، الذى يبحث عنه كل موجود، فيظهر له ويختفى فى آن معًا، ويستخدم هيدجر مقولاتٍ كيركجورية، كمقولة الموت والعدم.

فإذا كانت تجربة الموت عند كيركجور، تجربة أساسية، تنبهه إلى المفارقة، فقد احتلت هذه التجربة، مكانة عظيمة فى فلسفة هيدجر، إذ يغدو الإنسان وجودًا من أجل الموت.

ومن ناحية أخرى، يعبر "كارل يسبرز"، و"هيدجر"، عن مدى تأثير كيركجور فى الفكر الوجودى، فكلاهما يبحث عن "المتعالى"، وكل منهما يطلق عليه اسمًا خاصًا به، ويصوره، من خلال تأثيرات مختلفة عن تصور كيركجور.

وأخيرًا، يمكن أن نقول، إن تأثير كيركجور يمتد ليصل إلى وجودية "جان بول سارتر"، و"سيمون دى بفوار"، وسواهما. فقد تخلت المطالب الوجودية، عن سياقها الدينى، وأصبحت ذات كيان مستقل، كالحرية، والأصالة، والشعور بالعدم، والقلق واليأس. وهذا ما قاله كيركجور عن الحرية الإنسانية، بأنها تمثل دعامة الوجود البشرى، فليس الإنسان إلا حرية، ولا يعد وجودًا حقيقيًا قبل قراره الحر، قبل تكوين ذاته بذاته. فإذا كان كيركجور، قد دعا إلى تكريس هذه الحرية فى سبيل المسيحية، وألح فى بيان أهمية التحول الحر الإرادى إلى المسيحية، فإن هذه الحرية غدت عند أتباعه، الذين فقدوا هذا المطلب الدينى، عبثـًا لا هدف له، وحملا يتعين على الإنسان، أن يحيا به، لأنه مقضى عليه بالحرية، وهكذا بدلاً من أن يتعدى الوجود إلى ما يعلوه، يغوص فى الوجود الإنسانى، ولا يرى مفرًا من الشعور بالعدم المتصل بالحرية، والقلق الناجم عنه. وهذا ما سبق أن قاله كيركجور فى سياق دينى.

وإذا كنا بصدد تقويم فلسفة كيركجور من خلال هذا البحث، فلابد لنا أن

نتعرض للجوانب السلبية فى فلسفته، حتى يصبح هذا التقويم تقويمًا بناءً فالنقد الحقيقى، هو الذى يقوم على مجموعة من الأفكار، يؤمن بها كل من الفيلسوف وناقده. وعلى ذلك من الممكن أن نأخذ على موقف كيركجور الوجودى الملاحظات التالية.

1ـ لقد تميز القرن التاسع عشر، بثقة فلاسفة، فيما يسمى "بالعقل المطلق"، وذهبوا إلى أن العقل الإنسانى، يستطيع أن يشيد أنساقًا فلسفية، ومنطقية بالغة الدقة والإحكام، بحيث يمكن لهذه الأنساق أن تربط العالم والوجود الإنسانى، برباط وثيق، لا تنقطع أوصاله أبدًا، وكان على كيركجور، بغية الدفاع عن عقيدته، وعن إيمانه المسيحى، وعن فكرته عن الذات، كان عليه أن يتقدم بفكرته المضادة، والتى أسماها "المفارقة المطلقة" فهو يرى، أن الإيمان يوجد لأن هناك اتصالاً ينطوى على مفارقة بين "الزمانى" و"الأبدى"، بين "الله" و"الإنسان". ومن ثم ففى المسيحية التى هى ديانة الله ـ الإنسان، ينكشف جوهر الإيمان وماهيته بطريقة أفضل، حيث يوجد اتحاد مطلق بين شكل الإيمان ومضمونه.

والحقيقة، أنه فى غياب العقل، وفى طمس دوره، نجد أنفسنا فى حالة لا نستطيع معها أن ندفع أى إنسان نحو الإيمان، فضلاً عن أنفسنا، إذ أن كل ما نستطيعه هو أن نخاطر، وأن نتوقف عن التفكير، وأن نكف عن الاستدلال العلمى، وتعد مخاطرتنا تلك مشحونة بالعواطف، متدفقة بالمشاعر، ولا يهم إن كان نتيجة مخاطرتنا تلك سوف تؤدى إلى القفز بين يدى الله، أو بين يدى الشيطان. وهكذا حاول كيركجور كغيره من الفلاسفة اللاعقليين أن يثبت اللاعقلانية Irrationalism باستخدام قدراته العقلية، وجميع الحجج والأدلة المنطقية، فقد استخدم سلاح المذهب العقلى الذى أراد أن يدمره، كما اعتمد على منطقه.

2ـ لقد ذكر كيركجور، أن العاطفة هى نهاية "نضج الوجود"، للفرد الموجود، ومن هذه الزاوية، انتقد العصر الذى عاش فيه، لأنه كان عصرًا بدون عاطفة، فهو يرى، أنه "إذا استبعدت العاطفة، فلن تجد شيئًا يبقى للإيمان على الإطلاق"،

فالإيمان يعتمد على العاطفة، على الذاتية الجوانية وهو مولود فيها وكامن بداخلها.

والواقع، أن توحيد كيركجور بين العاطفة والنضج الوجودى، أصبح أمرًا غير مقبول اليوم، ذلك لأن الحركات القومية والأيديولوجية، التى زخر بها القرن المعاصر، قد بينت، أن العاطفة يمكن أن تكون أكثر تحطيمًا ودمارًا من الفتور الذى هاجمه كيركجور.

3- ورغم أن كيركجور قد أمدنا بنقاط عظيمة عن التاريخ، تنم عن أصالته، إلا أنه أخطأ حين تحدث عن هذا التاريخ، وكأنه مفرغ تمامًا من المضمون، نعم أن القرار الشخصى يعتبر حدثًا تاريخيًا، لكن تفريغه من مضمونه، هو أمر لا يمكن قبوله بحال من الأحوال. على سبيل المثال، أن التطور التاريخى للمسيحية، لا أهمية له بالنسبة للؤمن، إذ المشكلة التى يثيرها التجسيد واحدة أمام كل فرد، وهى أن المسيح هو اللّٰه. ولما كان كيركجور يعتقد أن إنشاء كنيسة مسيحية وزيادة عدد المؤمنين يقلل من "اللامعقول"، الذى تتضمنه دعوى المسيح، فإنه يذهب إلى أن التطور التاريخى للمسيحية له تأثير سلبى على الفرد الذى يكافح لكى يكون مؤمنًا مخلصًا فى إيمانه. ومن هنا فلابد للمرء أن يهمل تاريخ الكنيسة، ويسعى للمواجهة المباشرة مع المفارقة المطلقة.

4- هاجم كيركجور هجومًا عنيفًا الفلسفة الهيجلية، رغم أنه اعتمد فى كثير جدًا من جوانب فلسفته على هذه الفلسفة، فلقد استمد منها أفكارًا مثل: التكوين الأنطولوجى للذات (لا نهائية الذات من ناحية، وتناهيها من ناحية أخرى)، كذلك تصوره للجدل، وتطور مراحل الوجود، وكثيرًا من المقولات مثل مقولة العام.

5- إن الهدف النهائى من جدل الوجود عند كيركجور، هو الوصول إلى "الذات الحقة"، لا الزائفة، هو التحقق الكامل للفرد، لكن الفرد الذى يدافع عنه لابدّ أن يكون "معزولاً" عن المجتمع، فهو "المتميز"، و"المتفوق"، و"الخارق للعادة"،

و"الأوحد"، و"المستثنى"، لا الإنسان العادى، المتوسط القدرات. ومن هنا فلا غرابة فى كراهيته "للجماهير" و"الحشد" الذى يتحدث عنه باحتقار، ويصفه بأنه "الرعاع" و"الدهماء".

6- إن ذهاب كيركجور إلى القول بأن الهدف النهائى للتطور الجدلى للذات، هو بلوغ الذات الحقة، وأن هذه، لا نصل إليها إلا بالإيمان، وليس الإيمان سوى إيمان الفرد بالمفارقة، التى هى تجلى الله فى التاريخ ... إلخ. ذلك كله يؤدى إلى فهم غريب، للذات الحقة، فالذات الأصلية تبعًا لذلك، لابد أن تكون مسيحية، وإلا لابد أن تكون زائفة مهما بلغ تدينها، وهى لا يمكن أن تصل إلى السعادة، لأنها لم تؤمن بأن الله هبط إلى الأرض!

والحق أن ذلك فهم بالغ الغرابة للإيمان، أنه فهم ضيق قاصر، يجعل المؤمن مؤمنًا بمجموعة معينة من الأفكار التى ينادى بها دين معين، وإلا طاردته اللعنات، وها هنا يخرج المفكر، عن نطاق الفلسفة، ليتحول إلى مبشر بدين معيّن.

❋ ❋ ❋ ❋